التفسير والعصر الحديث

د.رشيد درغال- د.عمر حيدوسي

جامعة باتنة - الجزائر

ملخص المقال:

تنطلق هذه الدراسة من حقيقة أن العصر الحديث عامل مؤثر في التفسير، تحفظ الكثيرون عليه. وقد عرض البحث كنموذج تعقيب الدكتورة عائشة عبد الرحمن على التفسير العصري للدكتور مصطفى محمود.

لكن ورغم كل التحفظات، يبقى القرآن محتاجا لتفسير عصري، خاصة في هذا العصر التفسيري الحديث الذي بدأ مع الإمام محمد عبده وتلميذه محمد رشيد رضا ووارث منهجهما الإمام عبد الحميد بن باديس.

ثم انتقلت الدراسة لعرض الآثار الإيجابية والسلبية للعصر الحديث في التفسير، ولعل أهمها مواكبة التفسير للحياة المعاصرة ومناهضة الاستعمار والدعوة للإصلاح السياسي والاجتماعي.

ذلك لأن التفسير المعاصر تحرر من ثنائية الأثر والرأي، وانتقل من التفسير باللغة والفقه والعقيدة إلى التفسير بالمعرفة. وذلك في ظل موقف متزن من تفسير السلف، لا يلغيه ولا يقدسه، لأن التفسير لا يمكن أن يحتكره عصر واحد؛ فالعقل المسلم ملزم بالتفاعل مع القرآن

فـي كـل عصـر ليواكـب التفسـير تـاريخ الأمـة وتـاريخ المعرفـة ويحـل مشكلات كل زمان ومكان وإنسان.

وليحقـق ذلـك، انتقـل العصـر الحـديث بالتفسـير مـن لغـة المنـاهج إلـى لغـة الاتجاهـات؛ مـن لغـة الأدوات المسـتخدمة فـي التفسـير، إلـى لغـة الإطار الكلي والخلفية الفكرية الموجهة لغايات العمل التفسيري.

Summary

This study started from the fact that the modern age is an influent factor on the explanation of Quran "tafsir", but it is disagreed by a lot of searchers such as Dr. Aicha Abdurrahman which criticised Dr. Mustafa Mahmoud.

Although, Quran needs a modern explanation, especially in this new age starting with Imam Mohamed Abdou and his student Mohamed Rachid Redha and Imam Abdulhamid Ben badis.

Than, the study presented the positive and negative effects of the modern age on Tafsir.

The main effects are that tafsir is now going with the modern life, and it played an important role on facing colonialism and calling for political and social reformation.

Tafsir is liberated from the circle of texts and opinions, using a new tool: "science" instead of language, fiqeh and aquida.

Tafsir cannot be limited in one age, even the age of "salaf" (the three first centuries of Islam), because we have to react with Quran every time in all ages, to be up to date with the history of nation and knowledge, thus we can solve our problems every where and when.

To realise that, Tafsir moved in this age from the language of methods to the language of trends.

توطئة:

تفاعل التفسير مع العصر الحديث كغيره من العلوم تأثرا وتأثيرا، ومن الخطأ الاعتقاد أن تطور أي علم من العلوم الإسلامية وغير الإسلامية مستقل عن الواقع وغير متأثر بمتغيرات الحياة.

ومن الغريب أن يقول أحد الباحثين في تطور علم التفسير: "فالتطور الذي حدث في العلوم الإسلامية ليس له أي علاقة بالتغير السياسي الذي تخلل عصوره"[1].

وإذا كان الباحث استحضر معنى تنزيه العلوم الإسلامية عن الاستجابة لضغط الواقع، فقد كان عليه أن يستحضر أيضا المعنى السلبي المقابل؛ وهو أن هذه العلوم –التي يريد تنزيهها- تهان في الحقيقة إذا فصلناها عن تلبية حاجات الواقع الإنساني وحاصرناها في برج عاجي يعزلها عن التأثر والتأثير في الحياة التي يفترض أن تكون رسالة العلم السامية.

ولعل هذا ما جعل غيرنا يتصور أن العلوم الإسلامية بقيت أنصاف علوم لا نضجت ولا احترقت! كما يقول د.محمود عزب[2].

ويكفي في الرد على مثل القول السابق، تساؤل د.عزب: هل يمكن أن يقال إن التفسير ثابت لا يتحرك مع أن حياة جماهير المسلمين تعج بالحركة؟![3].

(1)- د.مساعد مسلم، أثر التطور الفكري في التفسير، ص 27.

(2) - د.محمود عزب، ملامح التنوير في مناهج التفسير، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط 2006، ص40.

(3) - محمود عزب، نفسه ، ص 47.

إن المنطق والتاريخ يقرران أن المفسر –عن وعي أو عن غير وعي- منغمس تماما في حركة الواقع اليومي، بل هو نتاجها[1].

ماهية المعاصرة:

إن مصطلح العصر الحديث وما يحمله من معاني المعاصرة والعصرية والعصرنة، صار في حد ذاته عاملا موجها ومؤثرا في العملية التفسيرية، فقد وجد المفسر الحديث نفسه أمام ضرورة التجديد والإبداع، لا لأنه مفسر فحسب، بل لأنه حديث أيضا.

لقد صارت المعاصرة والعصرية القيم العليا السائدة في هذا العصر، وكأنها الأصل المرجوع إليه والمسلمة المبدوء بها في معالجة القضايا والترجيح بين الحلول .[2]

وقد تفاقم الأمر عندما ارتبط مفهوم المعاصرة بكل ما يضاد الرجعية والتخلف، ثم تطور المفهوم ليصير العصري هو المنصبغ بخصائص الغرب الحضارية بحكم أنه رمز الحضارة والتمدن، بينما الباحث عن الأصالة والقيم رجعي متخلف يسبح عكس تيار العولمة.[3]

التفسير العصري:

لعل هذا ما جعل الكثيرين يتحفظون على عصرنة التفسير أو "التفسير العصري" الذي شنت عليه الدكتورة بنت الشاطئ حملة واسعة

(1) - محمود عزب، نفسه، ص 43.

(2) - طارق البشري، ماهية المعاصرة، دار الشروق، القاهرة، ط2 ، 1426هـ/2005م، ص 48.

(3) - نفسه ص49، 52، (وقد تتبع د.طارق البشري تطور مفهوم العصرية والمعاصرة تتبعا تاريخيا ومنهجيا جيدا).

ردا على د.مصطفى محمود وتفسيره العصري متفادية حتى مجرد ذكر اسمه في كل الكتاب إلا مرة واحدة في كلام منقول! [1]

والمطلع على كتاب " القرآن والتفسير العصري "يكاد يجزم أن حملة د.عائشة ليست ضد تفسير مصطفى محمود فحسب، بل ضد كل ما هو "تفسير عصري" وذلك منذ الصفحات الأوائل –رغم أني أستبعد أن تقصد ذلك- تقول مثلا في أول الكتاب" فجأة ومن حيث لا نتوقع، يتردد في أفقنا كلام عن حاجة الناس إلى تفسير عصري للقرآن يستجيب للتقدم العلمي، ويتابع ما يستحدث الإنسان من علوم العصر، وما يكتشف من أسرار الذرة والإلكترون وبيولوجيا القمر..." [2].

ثم تقرر أن الحملة ضد القرآن بدأت باسم العصرية[3].ثم تفرق أواخر الكتاب بين الدراسة القرآنية الخاضعة لأدق الضوابط المنهجية" وبين تفسير عصري يهيم في كل واد، ويضرب في متاهة الغيبيات لا يضبطه أي قيد"[4].

فرغم صحة كثير مما قالت الدكتورة بخصوص محاولة مصطفى محمود لتفسير القرآن تفسيرا عصريا، إلا أن القرآن لا يزال محتاجا لتفسير عصري.

(1) - قصدت أن أتتبع ذلك لما رأيتها تتحاشى تسمية من ترد عليه، فما عثرت له على اسم إلا في ص68 حيث تنقل كلام د.عثمان أمين، وفي تصوري مثل هذا التصرف يشخّص النقاش، خاصة وان الدكتورة عائشة صرحت بسرقته لأفكار كتابها "مقال في الإنسان". مما يوحي بان الرد لم يكن ردا على أخطاء التفسير العصري أصالة، بل دفاعا عن كتابها أولا.

(2) - عائشة عبد الرحمن، القرآن والتفسير العصري، سلسلة اقرأ، دار المعارف، القاهرة، مصر، رقم335، ص7.

(3) - عائشة عبد الرحمن، نفسه، ص 9.

(4) - عائشة عبد الرحمن، نفسه، ص 107.

كما أن العصرية لا تعني مضادة القرآن، والتفسير العصري ليس خبط عشواء في متاهات الغيب دون ضوابط، إلا إذا أراد له صاحبه كذلك، لا تصوّره عصريا، بل لكونه اجتهادا بشريا موجها بإرادة المفسر وقدراته وآفاقه.

العصر الحديث من منظور تفسيري:

فالشيخ محمد عبده -لو لم يكن عصريا بالمعنى الإيجابي للكلمة- لما صار معلما ومنعطفا تاريخيا بين التفسير القديم والتفسير الحديث، بإجماع المتتبعين لتطور حركة التفسير في العصر الحديث[1] وهو ما اعتمدته في هذه الدراسة.

فبظهور الإمام محمد عبده وقبله أستاذه جمال الدين الأفغاني، وبعدهما السيد محمد رشيد رضا اكتملت الأركان الثلاثة لمشروع المنار الإصلاحي.

ويشير الشيخ محمد البشير الإبراهيمي إلى أن إرهاصات التجديد لعلم التفسير تجلت في ثلاثة من أذكى العلماء وأوسعهم اطلاعا: الشوكاني والآلوسي وصديق حسن خان[2]، "ثم كانت المعجزة بعد ذلك الإرهاص بظهور إمام المفسرين بلا منازع محمد عبده، أبلغ من تكلم في التفسير... ولكنه مات دون ذلك فخلفه ترجمان أفكاره ومستودع أسراره محمد رشيد رضا فكتب في التفسير ما كتب... ومات قبل أن يتمه، فانتهت إمامة التفسير بعده في العالم الإسلامي كله إلى أخينا وصديقنا

(1) - ينظر مثلا، الذهبي ، التفسير والمفسرون 474/2، محمد محمود حوا: التفسير ورجاله،دار نور ، ص151. عبد الحميد بوكعباش، التفسير والمعرفة الحديثة، ص 35 وما بعدها . علي الأوسي، الطباطبائي ومنهجه في التفسير، معاونية الرئاسة للعلاقات الدولية، مطبعة سبر، طهران، إيران، ط1، 1405هـ/1985م، ص 113.

(2) - الإبراهيمي، مقدمة مجالس التذكير، ص 19.

ومنشئ النهضة الإسلامية العلمية بالجزائر بل بالشمال الإفريقي عبد الحميد ابن باديس "[1].

فالإبراهيمي يعتبر ابن باديس الركن الرابع لمشروع الإصلاح والتجديد التفسيري، بينما يعتبر الأستاذ مالك بن نبي جهد الشيخ حسن البنا نقلة نوعية حولت التفسير من لغة وكلام إلى تركيب اجتماعي يستخدم الآية كفكرة موحاة لا كفكرة محررة[2].

وبغض النظر عن خلافة محمد عبده ورشيد رضا، فإن جلّ-إن لم نقل كلّ-المحاولات التفسيرية الجادة في العصر الحديث نلمح فيها روح التجديد والإضافة والخروج من أسر التدوين والنقل المجرد[3].

فمن مجدد من حيث الشكل إلى مجدد في الموضوع والمنهج، إلى تفاسير جامعة لأكثر من منهج وتفاسير معنية بالاختصار والتهذيب بما يلائم حاجة العصر واهتمامات الناس[4].

الآثار الإيجابية والسلبية:

وعموما فقد كان للعصر الحديث عميق الأثر في تحرير التفسير من ركوده وجموده كما يقول الشيخ الذهبي ملخصا أهم الآثار الإيجابية والسلبية للنهضة العلمية الحديثة في التفسير[5].

فمن الآثار الإيجابية:

- تخليص التفسير من الاستطرادات العلمية المطولة.

---

(1) - الإبراهيمي، نفسه، ص 19.

(2) - مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص108. وانظر: محمد دراجي،معالم منهج حضاري في تفسير القرآن الكريم،دار البلاغ،الجزائر،ط1، 1423هـ/2002م، ص 36،35.

(3) - صبحي صالح، مباحث في علوم القرآن، ص 297.

(4) - عبد المجيد البيانوني، ملحق كتاب التفسير ورجاله لمحمد محمود حوا، دار نور المكتبات، جدة، السعودية، ط1424،1هـ/ 2003م،ص 151، 152.

(5) - الذهبي، التفسير والمفسرون، ص 474.

- تنقية التفسير من القصص الإسرائيلي.
- تمحيص الأحاديث الواردة في التفسير.
- إلباس التفسير ثوبا أدبيا اجتماعيا.
- التوفيق بين القرآن وما جدّ من نظريات علمية صحيحة .

مع تسجيل الذهبي **لبعض الآثار السلبية**:

- التوسع العلمي المبالغ فيه عند البعض (كما في تفسير الجواهر لطنطاوي جوهري).
- التأثر بالمذاهب والعقائد.

والواقع أن الآثار السلبية التي سجلها الذهبي قديمة موروثة، بل وتقلصت في العصر الحديث، فالانتصار للمذهب والرأي الفاسد مشكلات قديمة كانت أكثر تفاقما بل ولوّنت التفسير باللون المذهبي منذ نشأته حتى عدّه الكثيرون منهجا في التفسير ومنهم الذهبي نفسه[1].

أما التوسع العلمي المستفيض فلا نكاد نجده إلا عند طنطاوي جوهري وبعض التفاسير العلمية.

هذا عن السلبيات، أما الإيجابيات فلم يشر الذهبي إلى أن التفسير في العصر الحديث صار مواكبا للحياة، مما فرض نزعة التزامية في التفسير [2].

فقد لعبت حركة التفسير دورا مهما في نشر الوعي السياسي ضد الاستعمار، وساهمت مساهمة أساسية في حركة الإصلاح الاجتماعي

(1) - الذهبي، نفسه. ص 474

(2) - عفت الشرقاوي، قضايا إنسانية، ص 81.

والسياسي والاقتصادي، فضلا عن الجانب التهذيبي والأخلاقي والروحي.[1]

كما أن التفسير بدأ يتحرر من ثنائية الأثر والرأي التي ظنها المتقدمون بديهية مسلمة ملازمة للتفسير.[2] وبدأ يحلّ محلها التفسير بالمعرفة، "وفي الحقيقة وواقع الأمر أنه لا تفسير إلا بمعرفة".[3]

فالعلوم اللغوية والفقهية والعقدية التي لازمت التفسير منذ نشأته هي معارف، بل هي أمهات المعارف الإسلامية وأسسها، وخاصة علم التفسير الذي لا يستغني عنها، ولكنه أيضا لا يستغني عن بقية المعارف النقلية والعقلية، لكن الذي وقع أن المفسرين القدامى انشغلوا بالعلوم الثلاثة السابقة (لغة، فقه، عقيدة) بسبب اهتمامهم بالنصوص الإنشائية الحاوية للأوامر والنواهي رغم أنها لا تمثل أكثر من (12/1) نصف سدس القرآن(500 آية) بينما النصوص الخبرية لم تلق العناية الكافية لغياب الأداة المعرفية المفسرة لها.[4]

تفسير السلف:

ولعل هذا الاهتمام المستفيض بالقسم العملي من النصوص القرآنية الإنشائية لدى القدامى هو سبب الوقفة التقديسية المتهيبة من الإضافة على أقوالهم في القرآن كله.

وانتشرت بذلك تلك المقولات الخاطئة التي تلخصها عبارة " ما ترك الأول للآخر شيئا".

---

(1) - علي الأوس، الطباطبائي ومنهجه في تفسيره –الميزان-، ص 112، 113.

(2) - محمود عزب، ملامح التنوير، ص 42.

(3) - عبد الحميد بوكعباش، التفسير والمعرفة الحديثة، ص37.

(4) - نفسه، ص 38، 39.

انظر مثلا إلى قول الذهبي: "لم يترك الأوائل للأواخر كبير جهد في تفسير كتاب الله والكشف عن معانيه ومراميه... والذي يقرأ كتب التفسير على اختلاف ألوانها لا يدخله شك في أن كل ما يتعلق بالتفسير من الدراسات المختلفة قد وفاه هؤلاء المفسرون الأقدمون حقه من البحث والتحقيق... (ولم يتركوا لمن جاء بعدهم) من عمل جديد أو أثر مبتكر... اللهم إلا عملا ضئيلا لا يعدو وأن يكون جمعا لأقوال المتقدمين أو شرحا لغامضها، أو نقدا وتفنيدا لما يعتوره الضعف منها، أو ترجيحا لرأي على رأي"[1].

وكأن المفسر الحديث لا يمكنه أن يجتهد في فهم وتفهيم كتاب الله لأن فهوم القدامى استنفذت معاني النصوص، ولم يبق أمامه إلا مجال ضيق لممارسة تفسير مغلق مسيّج بمعرفة راكدة[2].

وما دام المنطلق غير سليم، فلا عجب أن تنبني عليه استنتاجات ليست خاطئة فحسب، بل ومتناقضة أيضا! فأمام هذه الهالة التقديسية لتفسير السلف، كيف نتصور الموقف من التفسير في عصر النبوة؟، فمن قائل أن النبي –صلّى الله عليه وسلّم- لم يلتحق بالرفيق بالأعلى إلا وقد فسّر لنا ما نحتاجه من القرآن[3]، إلى قائل بأن القرآن لم يكن أصلا محتاجا لتفسير في عصر التنزيل! [4].

أما المقولة الأولى، فهي صحيحة لو ضبطت بحاجة العصر، أي أن الرسول –صلّى الله عليه وسلّم- فسر القرآن في حدود ما يحتاجه

(1) - الذهبي، التفسير والمفسرون، 473/2.
(2) - بوكعباش، التفسير والمعرفة الحديثة، ص 43.
(3) - محسن عبد الحميد، دراسات في أصول التفسير، ص 9.
(4) - مساعد مسلم، أثر التطور الفكر في التفسير، ص 53.

عصره، أما من بعده فقد تجددت وتنوعت حاجاتهم وحاجات عصورهم لذلك احتاجوا إلى تفسير القرآن الكريم تفاسير "معاصرة" لهم بعد تفسير النبي -صلّى الله عليه وسلّم- والصحابة والسلف. وليس في هذا أي انتقاص من قيمة النبي –صلّى الله عليه وسلّم- أو قيمة تفسيره للقرآن المتجسد في سنته –صلّى الله عليه وسلّم-.

ولعل مرمى مثل تلكم المقولة أن الرسول –صلّى الله عليه وسلّم- فسّر لنا ما نحتاجه من أصول العقيدة والشريعة، هو منظور صحيح بالنظر لوظيفة السنة ومكانتها في التشريع ومنزلتها من القرآن.

أما عن المقولة الثانية، فالخطأ فيها راجع لقصر وظيفة التفسير على الشرح اللغوي، ومادام الصحابة عربا أصلا فهم يفهمون القرآن العربي فلا يحتاجون لتفسيره!

ولو لم يكن القرآن محتاجا لتفسير، فلماذا كان رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم- يفسر أصلا؟ ولماذا كانوا هم يتساءلون ويستفهمون عن النصوص؟ بل لماذا برز بينهم مهتمون بالتفسير أكثر من غيرهم ما داموا كلهم "مفسرين" يفهمون القرآن والعربية؟

التفسير وضرورات المعاصرة:

إن النهاية الفكرية لكلتا المقولتين تنم عن خلل في تصور علاقة التفسير بالعصر، أي في تصور ضرورة معاصرة وعصرية التفسير والحاجة للتفسير في حدود احتياجات العصر والواقع.

فهل يعقل أن يحتكر التفسير عصر واحد، أو أن يترفع عصر عن الحاجة للتفسير، ولو كان عصر النبوة والوحي، فالقرآن أجلّ من أن يحتكره عقل واحد وعصر واحد[1].

وباستطاعة كل عصر وعقل بمؤهلات وشروط وضوابط –طبعا- أن يضيف لتفسير النص القرآني، يقول د.محسن:"من المحال على البشرية أن تفهم كمالات القرآن في نواحي الوجود كلها في عصر واحد، إذ باستطاعة كل عصر أن يضيف إلى تفسير الآيات المتعلقة بتلك الموضوعات مما يستجد أمامه من العلوم والمعارف نتيجة لتطور الحضارة ونمو الثقافة. أي أن تفسير القرآن في عصر ما يتأثر تأثرا كبيرا بالمستوى العقلي والحضاري الذي وصل إليه المسلمون"[2].

وإذا كان الدكتور محسن يرى أن التفسير "يتأثر" بالعصر وأن كل عصر"باستطاعته" أن يضيف للتفسير، فإني أقول إن التفسير لا ينفك عن العصر ولا ينفصل عنه، ولا يمكن أن يتصور بدونه.

فالتفسير الذي لا يخدم قضايا عصره لا يعدّ تفسيرا أصلا كما يشير إلى ذلك الأستاذ سعيد حوى في قوله: "وأما بالنسبة للتفسير، فإذا لم تخدم قضية الإيمان فيه في عصرنا المادي الشهواني، فكأن المفسر لم يفعل شيئا".[3]

ثم إن كل عصر ليس باستطاعته " فقط" أن يضيف بل من واجب المسلمين في كل عصر ومصر أن يتفاعلوا مع القرآن الكريم فهما وتفهيما.

---

(1) - مصطفى محمد الحديدي الطير، اتجاه التفسير في العصر الحديث، ص 10.

(2) - محسن عبد الحميد، دراسات في أصول التفسير، ص9.

(3) - سعيد حوى، الأساس في التفسير، 13/1.

وعلى المتخصصين منهم في التفسير أن يجتهدوا في تفسير القرآن الكريم في ضوء حاجة العصر وعطاءاته المعرفية المتجددة التي كانت ولا تزال في توسع مستمر يوسع بالضرورة مجال الأدوات التفسيرية[1] وبالتالي مجال العملية التفسيرية برمتها. [2]

لذا، واكب تطور التفسير تاريخ الأمة من جهة، وتاريخ المعرفة من جهة ثانية، " فلطالما كان التفسير مرآة للحياة العامة والخاصة، حتى إن التفاسير الموجودة في مكتبة القرآن لتمثل تاريخ المسلمين بصحيحه النافع وزبده الفاسد". [3]

فتاريخ الإسلام تاريخ للتفسير، وكذا تاريخ الفكر والمعرفة[4].

فالناظر في أعمال المفسرين يرى تاريخ الأمة والمعرفة ويرى خلاصة ما رآه كل مفسّر في عصره عندما نظر إلى آيات القرآن " ليرى من خلالها أوضاع الأمة وعللها وأسقامها، وليرى أحوال واقعها وموقعها بين الأمم، ثم يرى كيف يكون القرآن هاديا مرشدا لها في جوانب حياتها المختلفة"[5].

تلكم هي المهمة الحقيقية للمفسر، إظهار الحلول القرآنية للمشكلات التي تواجه الأمة ابتداء والإنسانية عموما[6]. وليس مجرد ردود الأفعال التي لا تصلح ردا على مشكلات الحياة[7].

(1) - محمود عزب، ملامح التنوير في مناهج التفسير، ص62

(2) - محمد دراجي، معالم منهج حضاري في التفسير، ص 13.

(3) -محمد صالح علي مصطفى، تفسير سورة الرعد، دار النفائس، الرياض، السعودية، ط1، 1408هـ/1988م، ص 24.

(4) - بوكعباش، التفسير والمعرفة الحديثة، ص 45.

(5) - د. زياد خليل محمد الدغامين، تفسير القرآن إشكالية المفهوم والمنهج، ص 16.

(6) - الدغامين، مرجع نفسه، ص 16.

(7) - محمود عزب، ملامح التنوير، ص 63.

تنبيه لا بد منه:

ولا بد من التنبيه هنا على أن الدعوة لتفسير القرآن تفسيرا عصريا، لا تعني أبدا رفض جهود السلف والانبتات عنها، والانتقاص من شأنها، فتفاسير القدامى تبقى رصيدا معرفيا هاما يرجع إليه وينطلق منه ويضاف عليه. ومن المرفوض علميا وأخلاقيا أن يقال إن التفاسير القديمة تمارس نوعا من التشريح الذي لا يتأتى إلا لجسم ميت[1].

مما يدعونا-حسبه- إلى صرف النظر عن الاحتجاج بالتفاسير القديمة بحجة أنها جنت جناية عظمى على القرآن، لأنها صرفت الناس عن مطالعة النص أو الاستماع إليه، وأن هذه التفاسير تحولت إلى مرويات ركيكة عديدة لا حصر لها لا يجمعها جامع بل يضرب بعضها بعضا.[2]

وأغرب منه قول أحدهم: " ومن هذا يتضح أنه لا يجوز اتباع أحد المفسرين في تفسيره سواء أكان ممن حسن مذهبه أم لم يكن، لأنه من اتباع الظن، وهو لا يغني من الحق شيئا!!" [3].

فإذا كان كلام البنا موقفا فكريا من تفاسير القدامى، فإن الأخرس حوله إلى موقف فقهي، وهذا قول شاذ لم يقل به أحد، وإذا كانت ظنية التفاسير سببا لعدم جواز الاحتجاج بها، فإن المعرفة الإنسانية كلها ظنية ولا قطع إلا في الوحي، فهل نقول بعدم جواز اتباع المعرفة كلها لأنها ظن. إننا في الحقيقة –وكما قرر العلماء- متعبدون بالظن، ولا يجوز

(1) - جمال البنا، تفسير القرآن الكريم بين القدامى والمحدثين، ص 54.

(2) - جمال البنا، نفسه، ص 11.

(3) - رياض الأخرس، المجريات الاجتماعية لتوجه نحو التفسير الموضوعي، دار الهادي، بيروت، ط1، 1427هـ/2006م،ص 28.

لأحد أن يقطع بأن رأيه هو المراد الإلهي والشرعي، بل يبقى اجتهادا بشريا قد يصيب وقد يخطئ.[1]

من هذا المنطلق، يتأكد لدينا أن لا تناقض بين المفسرين القدامى والمحدثين، إلا من حيث بعض التفاصيل المتعلقة بالمناهج والاتجاهات ومجالات التفسير وأدواته. بل على العكس تماما، إن التفسير في صورته المعاصرة محاولة عودة إلى نهج السلف بعد طول جمود وركود، فجل المفسرين المعاصرين أصحاب رسالة إصلاحية وحضور ميداني في المجتمع، تماما كما كان المفسرون الأوائل منذ جيل الصحابة والتابعين ومن على نهجهم.

التفسير المعاصر.. من المناهج إلى الاتجاهات:

مفهوم الاتجاه:

يعرف الدكتور محمد إبراهيم شريف الاتجاه التفسيري فيقول أنه: "مجموعة الآراء والأفكار والنظرات والمباحث التي تشيع في عمل فكري –كالتفسير- بصورة أوضح من غيرها، وتكون غالبة على ما سواها، ويحكمها إطار نظري أو فكرة كلية تعكس بصدق مصدر الثقافة التي تأثر بها صاحب التفسير، ولونت تفسيره بلونها"[2].

أي أن الاتجاه يمثل الخلفية الفكرية أو الرؤية الفلسفية الكلية الموجهة للتفسير[3]. والطابع العام والمنحى الشامل لعمل المفسر[1].

(1) - الشاطبي، الموافقات، ص 429. ابن قدامة المقدسي، روضة الناظر وجنة المناظر، مؤسسة الريان، ط2 ،2002م، 142/2. علاء الدين البخاري، كشف الأسرار ، دار الكتاب الإسلامي 31/4. الشوكاني: فتح القدير، 76/5.

(2) - محمد إبراهيم شريف، اتجاهات التجديد، ص 63.

(3) - محمد دراجي، معالم منهج حضاري في تفسير القرآن الكريم، ص 14.

أو بعبارة أبسط، الاتجاه هو "الهدف الذي يتجه إليه المفسرون في تفاسيرهم ويجعلونه نصب أعينهم وهم يكتبون ما يكتبون"[2].

فالاتجاه إذن، الإطار الكلي الذي يوجه المفسر ويصنع غاياته ومراميه من عمله التفسيري، ويضبط توظيفه للأدوات والمناهج المناسبة للتفسير.

الاتجاه والمنهج:

رغم عمومية الاتجاه وخصوصية المنهج، إلا أنه كثيرا ما يخلط بينهما، بل ويعتبرهما البعض شيئا واحدا[3]. والواقع –كما يرى د.شريف- أن المنهج التفسيري هو الوسيلة المحققة لغاية الاتجاه التفسيري، فالمنهج كالوعاء الحاوي لأفكار اتجاه تفسيري ما. [4]

كما أن الاتجاه تصور وقواعد نظرية، بينما المنهج تطبيق عملي لتلك التصورات والقواعد في التفسير[5]. وهو نفس ما يراه د.محمد دراجي، رغم تباين الاصطلاح. فالدكتور دراجي يستخدم "المنهج" للتعبير عن "الاتجاه"، ويستعمل مصطلح "الطريقة" للدلالة على ما نقصد بها هنا "المنهج"، وهذا بالنظر –طبعا- للمضامين التي عبر عنها. [6].

(1) -عبد العزيز المجذوب، الرازي من خلال تفسيره، الدار العربية للكتاب، طرابلس، لبنان، 1396هـ/1976م، ص63.

(2) - فهد الرومي، اتجاهات التفسير، ص 22، وبحوث في أصول التفسير ومناهجه، ص 55.

(3) - انظر مثلا محمد نبيل غنايم، دراسات في التفسير، ص 37.

(4) - محمد إبراهيم شريف، اتجاهات التجديد، ص 68.

(5) - ينظر: عبد الفتاح الخالدي، المنهج الحركي في ظلال القرآن، دار المنار، جدة، السعودية، ص125.

(6) - محمد دراجي، معالم منهج حضاري، ص 15.

وعليه يمكن القول أن المنهج هو نتيجة استخدام المفسر لأدوات معينة بكيفيات معينة، أي أن المنهج مجموعة تقنيات وأشكال بحثية، وغالبا ما يعنون المنهج بالعلم الغالب على استخدام المفسر في تفسيره.

ومعظم المناهج سميت من هذا المنظور، فعندما نقول إن منهج المفسر الفلاني منهج فقهي، فهذا يعني أنه استخدم الفقه أكثر من غيره وتوقف عنده مطولا في تفسيره الذي سيكون غطى بالضرورة آيات الأحكام أكثر من غيرها.

أما الاتجاهات فهي خطوة أبعد في التفسير كعلم وكعملية، ويمكن جعلها منطلقا للانتقال إلى مستوى معرفي جديد في الطرح لعلم التفسير ولـ"فلسفة التفسير".

من المناهج إلى الاتجاهات:

فبعد أن بدأ التفسير نصوصا مسندة ضمن علم الحديث، ثم استقل بعد حذف الأسانيد، ودونت معارفه، ليظهر لها بالتدريج مناهج خاصة[1]، ها هو التفسير في العصر الحديث ينتقل من "لغة" المناهج إلى لغة جديدة هي الحديث عن اتجاهات تفسيرية، تجعل التفاسير تصنف وتقيم حسب غاياتها ومراميها ومنطلقاتها التصورية وخلفياتها الثقافية.

وهو ما يراه د.عبد الحميد بوكعباش، إذ يقول ما معناه: "فالتفسير قبل المنار كان شرحا يتنوع إلى مذاهب، ويشمل كل مذهب آراء عقلية وأفكارا نظرية، لكنه في العصر الحديث صار يتنوع إلى اتجاهات[2].

(1) - تراجع تفاصيل نشأة علم التفسير في مختلف الدراسات التفسيرية، انظر مثلا: الذهبي:التفسير والمفسرون، صبحي صالح: مباحث في علوم القرآن، ...

(2) - بوكعباش، التفسير والمعرفة، ص 37.

لقد صار التفسير الحديث موجها بغايات، مما جعله معالجة عملية، لا مجرد بحث نظري أو تطبيق لغوي أو فقهي كما كان المفسر القديم، بل صار المفسر في العصر الحديث أكثر تذكرا لواقع أمته، وأكثر استحضارا لهدفه من عمله التفسيري[1].

وإن كان الدكتور محمود عزب، يرى أنه حتى لغة المناهج غير مناسبة عند الحديث عن تفاسير القدامى، والمتحدث عن منهج لتفسير قديم متجاهل –كما يقول الدكتور عزب- لحركة التاريخ وطبيعة التفسير في تلك العصور. [2]

والحقيقة أن في هذا شيئا من المبالغة، فإذا كان المفسرون السابقون لا يصرحون بمناهج معينة يعتمدونها، ولا يكلف بعضهم نفسه حتى الولوج لتفسيره بمقدمات علمية يلخص فيها تصوره لعلم التفسير، إلا أن هذا لا يعني أنهم لم ينطلقوا من خلفية معرفية وتصور لطريقة وأسلوب ما في كتابة التفسير، وإلا لما استطاع المحدثون استنطاق تلك الجهود واستخراج مناهجها، وإذا كان مصطلح المنهج حديثا، فإن صورته ومعناه كانت حاضرة عند المفسرين ولو لم يصرحوا بها.

بل يمكن الذهاب أبعد من هذا، والقول بأن ثنائية الأثر والرأي تعبر –ولو من طرف خفي- عن اتجاهات تفسيرية وليس مجرد مناهج. فالمفسر الأثري وهو يوظف الأداة الروائية لا بد وأنه مقتنع بأنه لا يمكن أن يفسر القرآن إلا بمستند نصي نقلي عن الوحي وجهود سلفه.

بينما الممارس للتفسير بالرأي ينطلق من قناعة أنه لا مناص من الاجتهاد والقول بالرأي بعد الرجوع للوحي والتراث، وهو ما يشير إليه

(1) - عفت الشرقاوي، قضايا إنسانية، ص 80.

(2) - محمود عزب، ملامح التنوير، ص 41.

د.شـريف، حيـث قـرر أن التفسـير قـديما يحكمـه اتجاهـان: اتجـاه يـرى كراهيـة إعمـال العقـل والـرأي فـي التفسـير، فيلجـأ لجمـع المرويـات والتوقـف عنـدها (الأثـر) واتجـاه راغـب فـي الابتكـار مـع ثقـة فـي قـدرة العقـل(الرأي). [1] ولـم يمنعنـي مـن اعتمـاد هـذه الثنائيـة كاتجـاهين تفسـيريين إلا تـداخلهما وصـعوبة الفصـل بينهمـا فـي عمـل تفسـيري واحـد، فـلا نكـاد نجـد النقـل إلا ومعه الرأي والعكس [2].

وهـذا سـرّ صـعوبة التعامـل مـع هـذه الثنائيـة فـي الدراسـات التفسـيرية؛ فمـرّة تعـدّ اتجاهـات كمـا فعـل د.شـريف[3]، ومـرة يعـد المـنهج الأثـري رافـدا مـن روافـد الاتجـاه العلمـي كمـا يظهـر مـن تقسـيم الرومـي[4]. والـدكتور الرومـي نفسـه فـي كتـاب آخـر يعـد التفسـير بالمـأثور طريقـة مـن طـرق التفسـير فـي موضـع[5]، ثـم يعـود فـي موضـع آخـر ليعـد التفسـير بالمـأثور منهجا من مناهج التفسير![6].

وهنـاك مـن يعتبـر الأثـر والـرأي مـرحلتين تـاريخيتين للتفسـير كمـا يبـدو مـن تنـاول المستشـرق جولـد تسـيهر لهـا[7]. وهـو مـا يظهـر فـي تصـنيف طبقات المفسرين عند بعض المؤلفين كالدكتور غنايم[8].

(1) - محمد إبراهيم شريف، اتجاهات التجديد، ص63.
(2) - صرح بهذا الكثيرون، انظر مثلا د.شريف: اتجاهات التجديد ، ص 64.
(3) - نفسه، ص 83.
(4) - الرومي، اتجاهات التفسير، 519/2.
(5) - الرومي، بحوث في أصول التفسير، ص 71.
(6) - نفسه، ص 86.
(7) - جولد تسيهر، مذاهب التفسير الإسلامي، ص 73 وما بعدها.
(8) - محمد نبيل غنايم، دراسات في التفسير، ص 29.

هـذا الأخيـر الـذي يجعلهـا فـي تقسـيم آخـر "اتجاهـات التفسـير ومناهجـه"[1]. معتبـرا الاتجـاه والمـنهج شـيئا واحـدا، ويبـدو أنـه لـيس الوحيـد الذي يعتقد ذلك[2].

طريقة واحدة :

وإذا كـان المفسـرون القـدامى لا يخرجـون عـن ثنائيـة الأثـر والـرأي، فـإنهم ومـن حيـث طريقـة عـرض المـادة التفسـيرية، ملتزمـون بطريقـة واحدة، هي طريقة التفسير التحليلي[3].

أي تفسـير القـرآن آيـة آيـة، بـدء بالمعـاني اللغويـة، ثـم الآثـار الـواردة فـي الآيـة، ثـم مـا يسـتخرجه المفسـر مـن معـان وأحكـام وحكـم مـن سـياق الآيـة، وقـد يبـين مـدى تـرابط الآيـة أو المقطـع أو السـورة كلهـا بمـا قبلهـا ومـا بعدها.

وهـذه الطريقـة جـد مجديـة فـي فهـم الآيـة وربطهـا بسـياقها، وليسـت – كما قال البنا- نوعا من التشريح الذي لا يتأتى إلا لجسم ميت[4].

فـالقرآن جسـم حـي يحتـاج لعقـل حـي يتفاعـل معـه ليـؤطر بـه الواقـع المتحـرك، والتشـريح الـذي يتحـدث عنـه البنـا تقـوم بـه العقـول الميتـة، ولا ذنب للقرآن الحي في ذلك.

بين التفسير والفهم:

إن طبيعـة ومـؤهلات العقـل المتفاعـل مـع القـرآن هـي التـي تحـدد نوعيـة النتـاج وقيمتـه العلميـة، فـإذا تفاعـل مـع القـرآن عـالم مخـتص فـي

(1) - نفسه، ص 37.

(2) - انظر مثلا: التفسير ورجاله، محمد محمود حوا، ص 35.

(3) - محمد إبراهيم شريف، اتجاهات التجديد، ص66. جمال البنا، تفسير القرآن الكريم بين القدامى والمحدثين، ص 53.

(4) - جمال البنا، تفسير القرآن الكريم بين القدامى والمحدثين، ص 54.

التفسير مستكمل لشروط التفسير، كان نتاج تفاعله مع القرآن تفسيرا أو دراسة قرآنية؛ تفسيرا إذا استوفى كل القرآن أو قسطا وافيا منه، ودراسة قرآنية إذا توقف عند موضوع معين أو نص معين. أما العقل المسلم غير المتخصص في التفسير فيمكن أن يتفاعل مع القرآن، ويكون النتاج "فهما" لا "تفسيرا"[1].

وتوضح بنت الشاطئ أكثر قائلة: " القرآن نزل للعالمين ولم ينزل للمتخصصين، لكن تفسيره ليس مباحا لكل الناس، والاجتهاد فيه محظور على غير العلماء، بل إن قراءته ليست مباحة للعالمين، يقرؤه كل فرد باجتهاده، وإنما أجمعت الأمة على قراءات سبع، لأئمة من المتخصصين يفصلنا عنهم بضعة عشر قرنا"[2].

وتزيد الأمر تفصيلا وتوضيحا، حيث تشير لمحاولة متخصص في علم من العلوم الكونية أو الإنسانية فهم القرآن الكريم، فإن الأمر يكون مقبولا ومجديا إذا تناول من النصوص ما يتعلق بتخصصه، أما أن يخوض في كل الآيات والعلوم باسم كونه متخصصا أو عصريا فهذا لا يقبل ولا يعقل، وجلي طبعا أن الدكتورة عائشة ذكرت ذلك مشيرة إلى د. مصطفى محمود صاحب التفسير العصري[3]. مقارنة له بدراستها القرآنية حول الإنسان: "فرق كبير بين دراسة قرآنية تخضع لأدق الضوابط المنهجية الصارمة، وبين تفسير عصري يهيم في كل واد، ويضرب في متاهة الغيبيات لا يضبطه أي قيد"[4].

(1) - د.عائشة عبد الرحمن، القرآن والتفسير العصري، ص 47.
(2) - نفسه، ص 75.
(3) - نفسه، ص 85.
(4) - د.عائشة عبد الرحمن، القرآن والتفسير العصري، ص 107.

وبعيدا عن التشخيص، فقد فرقت الدكتورة بين التفسير والدراسة القرآنية من جهة، وبين محاولة الفهم، والتفسير العصري من جهة ثانية، ولا شك أن شروط وضوابط تحكم النوعين لكنها مع المفسر أضبط وأدق. ومع الفهم أخف وأقل تضييقا.

وتبقى مشكلة التفسير والدراسات القرآنية توسعها المتزايد، وغزارة الكتابة فيها، وهنا تطرح مشكلة التأليف، أو بالأحرى مشكلة المؤلف، فقد صار يكتب في التفسير والدراسات القرآنية المتخصص وغير المتخصص وتفاقم الأمر -كما يقول الدكتور عزب- أن المتخصصين في علوم التفسير أغلبهم تقليديون لا يتجرؤون على الخروج عن نسق معين خوفا من القول في القرآن بالرأي، وبالمقابل بعض المحاولات الاجتهادية، لكنها من غير متخصصين في الدراسات القرآنية والشرعية، يعتبرون عادة متطفلين دخلاء[1].كما حدث للكثيرين من أمثال الدكتور مصطفى محمود.

مراجع الدراسة

1. ابن قدامة المقدسي، روضة الناظر وجنة المناظر، مؤسسة الريان، ط2 ، 2002م
2. أبو إسحاق الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، تعليق: محمد حسنين مخلوف، دار الفكر، د.ت
3. جمال البنا، تفسير القرآن بين القدامى والمحدثين، دار الفكر الإسلامي، القاهرة، مصر، 1424هـ/2003م.
4. جولد تسيهر، مذاهب التفسير الإسلامي،

(1) - د.محمود عزب، ملامح التنوير، ص 48، 64.

5. رياض الأخرس، المجريات الاجتماعية لتوجه نحو التفسير الموضوعي، دار الهادي، بيروت، ط1، 1427هـ/2006

6. زياد خليل محمد الدغامين، تفسير القرآن إشكالية المفهوم والمنهج، مجلة المسلم المعاصر، س21، ع81، ربيع الثاني جمادى الثانية 1417هـ/أغسطس-أكتوبر 1996م.

7. سعيد حوى، الأساس في التفسير، دار السلام، القاهرة، مصر، ط1، 1405هـ/1985م.

8. صبحي صالح مباحث في علوم القرآن، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط27، 2007م.

9. طارق البشري، ماهية المعاصرة، دار الشروق، القاهرة، ط1426،2هـ/2005م

10. عائشة عبد الرحمن، القرآن والتفسير العصري، سلسلة اقرأ، رقم335، دار المعارف، القاهرة، مصر،

11. عبد الحميد بن باديس، مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، دار الكتب العلمية، بيروت –لبنان، ط2، 1424هـ/ 2003م، المقدمة بقلم محمد البشير الإبراهيمي.

12. عبد الحميد بوكعباش، التفسير والمعرفة الحديثة، رسالة دكتوراه، نوقشت سنة 2003م، كلية أصول الدين، جامعة الجزائر.

13. عبد العزيز المجذوب، الرازي من خلال تفسيره، الدار العربية للكتاب، طرابلس، لبنان، 1396هـ/1976م

14. عبد الفتاح الخالدي، المنهج الحركي في ظلال القرآن، دار المنار، جدة، السعودية.

15. عبد المجيد البيانوني، ملحق كتاب التفسير ورجاله لمحمد محمود حوا، دار نور المكتبات، جدة، السعودية، ط1424،1هـ/ 2003م

16. عفت الشرقاوي، قضايا إنسانية في أعمال المفسرين، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ط2، 1980.

17. علاء الدين البخاري، كشف الأسرار ، دار الكتاب الإسلامي.

18. علي الأوسي، الطباطبائي ومنهجه في التفسير، معاونية الرئاسة للعلاقات الدولية، مطبعة سبر، طهران، إيران، ط1، 1405هـ/1985م

19. فهد الرومي، بحوث في أصول التفسير ومناهجه،

20. فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي، اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، وأصل الكتاب رسالة دكتوراه نوقشت بكلية أصول الدين، جامعة محمد بن سعود، إشراف د.محمد مصطفى مسلم محمد.

21. مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي،

22. محسن عبد الحميد، دراسات في أصول التفسير،

23. محمد إبراهيم شريف، اتجاهات التجديد في تفسير القرآن الكريم في مصر، دار التراث، القاهرة، مصر، ط1، 1402هـ/1982م.

24. محمد بن علي الشوكاني: فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير، دار المعرفة-بيروت-لبنان، ط3، 1417هـ/1997م،

25. محمد حسين الذهبي: التفسير والمفسرون، مكتبة وهبة ، القاهرة – مصر، ط4، 1409هـ/1989م.

26. محمد دراجي، معالم منهج حضاري في تفسير القرآن الكريم، دار البلاغ، الجزائر، ط1، 1423هـ/2002م.

27. محمد صالح علي مصطفى، تفسير سورة الرعد، دار النفائس، الرياض، السعودية، ط1، 1408هـ/1988م.

28. محمد نبيل غنايم، دراسات في التفسير، دار الهداية، ط2، 1413هـ/1992م

29. محمود عزب، ملامح التنوير في مناهج التفسير،الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط 2006.

30. مساعد مسلم عبد الله آل جعفر، أثر التطور الفكري في التفسير في العصر العباسي، مؤسسة الرسالة، بيروت-لبنان، ط1405،1هـ/1984م

31. مصطفى محمد الحديدي الطير، اتجاه التفسير في العصر الحديث،مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة، 1975م.